مستقبل الفصحى (*)

للأستاذ محمد خلف الله أحمد

مدير المعهد

ورئيس قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية

دخلت العربية الفصحى منذ بداية النهضة الحديثة للعالم العربى فى عصر من الإحياء والتجديد والتنمية ، تعيش اليوم فى مرحلة حافلة من مراحله ، وتعمل على تذليل ما يعترض طريقه من صعاب . والحق أن الصعاب صاحبت هذا العصر منذ بدئه ؛ فقد طلع القرن التاسع عشر على الأمة العربية وهى فى أعقاب مرحلة طويلة من التفكك السياسى والركود الاجتماعى ، توقفت فيها اللغة عن النمو أو كادت ، وفقدت كثيراً من بواعث الحركة والتفتح ، فوجدت نفسها فى مواجهة العصر الحديث شاعرة بثقل مسئوليتها أمام مطالبه التعبيرية التى جلبها التطور الجديد فى مختلف نواحى الحياة العربية ، من ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية . ولم تكن هذه صعوبة مرحلة تنقضى بانقضائها ولكنها صعوبة مستمرة ، فالتطور يمضى فى سيره ، وسرعته تزداد ، وتيارات روافده تتدفق من هنا وهناك ، واللغة معه ومن ورائه تحاول أن تهيىء له الأدوات الضرورية لسيره .

وليس من غرضنا فى هذا البحث أن نتتبع المصاعب فى أشكالها المتعاقبة ، ولا أن نؤرخ للجهود الكثيرة التى بذلت — وتبذل — للتغلب عليها كالترجمة والتأليف ونشر التعليم وإحياء التراث وتجديد الآداب العربية ، ولكنا نقف وقفة عند واحدة من تلك الصعوبات واجهها علماء العربية — ولا يزالون يواجهونها — وهى المشكلة التى نجمت عن وجود لهجات محلية تزحم الفصحى ، وتحد من سرعة نموها وانتشارها ، وتستأثر دونها بالتعبير عن ميادين من الحياة اليومية للناس ، وتحرمها بذلك الإفادة من الخصب والتجدد والحيوية التى يتميز بها لسان التخاطب فى المجتمع .

(*) خلاصة بحث ألقى فى مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى فبراير (شباط) ١٩٦٨ .

هذه مشكلة شغلت بعض علمائنا ومصلحينا فى العصر الحديث قبل إنشاء مجامعنا اللغوية، وزاد الاهتمام ببحثها ومحاولة علاجها منذ أن قامت المجامع فى بعض عواصم العروبة . وكنت منذ سنين مضت قد حاولت أن أشارك فى إلقاء شىء من الضوء على بعض جوانب تلك المشكلة ، واتخذت من نتائج الدراسات النفسانية الحديثة التى أجريت على مراحل نمو الأطفال مدخلا إلى بعض مقترحات فى الموضوع نشرت عنها فى مجلة « الثقافة » القديمة بضع مقالات عن « الطفل واللغة القومية » و « وسائل ترقية اللغة العربية وتيسيرها » .

وأتيح لى أن أعرض فيه رأياً أمام مؤتمر المستشرقين الدولى السابع والعشرين الذى انعقد فى أمريكا فى شهر أغسطس (آب) من العام الماضى (١٩٦٧) .

وأريد فى البحث الحاضر أن أتناول ناحيتين :

الأولى : التنبيه إلى بعض عوامل جدت فى حياتنا القومية تستدعى منا مزيد من العناية بالموضوع .

والثانية : شىء من المراجعة للموقف وما عرض فى شأنه من قبل من حلول ، وما تشير إليه مؤشرات التطور الحاضر فى أمر مستقبل الفصحى وموقفها من اللهجات .

* * *

إن اللهجات — كما هو معروف — ليست جديدة على العربية ، فقد كان للعرب فى جاهليتهم لغات ، عملت فيها عوامل التقريب قبل الإسلام حتى أنشأت منها تلك اللغة الأدبية الفصيحة المشتركة ، التى جاء الإسلام وكتابه العربى المبين فأعطياها شخصيتها السوية الخالدة ، ووجودها العالمى الواسع ، وإن كانت قد بقيت من لغات الجاهلية آثار نصادفها هنا وهناك فى بعض نصوص الأدب القديم وكتب التراث ، كما نلمسها فى بعض العادات اللغوية للمتكلمين باللسان العربى إلى اليوم .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

غير أن حياة المجتمع الإسلامى منذ القرن الهجرى الأول شهدت بواكير لهجات محلية دارجة يشيع فيها اللحن والانحراف عن سنن الفصحى ، وكان ظهور تلك اللهجات من العوامل التى بعثت علماء العربية فى القرون الإسلامية الأولى على القيام بحركتهم فى جمع اللغة وتنقية الفصحى وتقنينها والمحافظة على سلامتها من اللحن والفساد .

ومن المعروف أن البيئات الإسلامية ذات الطابع العربى الغالب قد عاشت منذ تلك القرون بنظامين لغويين : نظام للثقافة والعلم والأدب قوامه العربية الفصيحة ، ونظام للتخاطب اليومى قوامه تلك اللهجات الدارجة التى تجردت من الخاصة الرئيسية للفصحى وهى الإعراب ، وعدت عليها عوادى الاختصار فى أشكالها والتحريف فى كثير من صيغها ، وتسربت إليها من مختلف الجهات عناصر دخيلة وعامية . وظلت الحال على هذا المنوال طوال العصور : جماهير تنشأ على العامية فى حياتها ، وتمتلك ناصيتها بطريقة طبيعية لا تحتاج بعد الطفولة إلى تدريب أو تعليم ، ومثقفون يشاركون الجماهير عاميتهم فى لسان التخاطب ، ولكنهم فى المجال الثقافى يحصلون الفصحى تحصيلا ، ويحفظون قواعدها حفظاً ، ويمرون بمراحل طويلة من التدريب ، ويعالجون ما تزل به ألسنتهم وأقلامهم من أخطاء فى إعراب الألفاظ ، أو ضبطها أو دلالاتها ، وتختلف حظوظهم من القدرة على استعمالها تبعاً لعوامل النشأة والاستعداد الشخصى والمجال الثقافى الذى يتحركون فيه .

وكان يمكن أن تستمر الحال فى العصر الحديث على ما كانت عليه من ازدواج بين الفصحى واللهجات العامية لولا أن الموقف تغير ، وأن عوامل اجتماعية وثقافية وقومية جدت عليه فحولته إلى نضال حاولت فيه اللهجات — ولا تزال تحاول — أن تكسب لأنفسها ميادين جديدة ، وأن تنتقص الفصحى من أطرافها ، بل ذهب بعض أنصار اللهجات فى مرحلة ما إلى تحدى الفصحى والمناداة بإحلال العامية محلها ، لا فى الحياة اليومية والآداب الشعبية فحسب ، ولكن فى نواح من الآداب المكتوبة أيضاً . ففى الثلث الأخير من القرن الماضى ارتفعت فى بعض جنبات الوطن العربى دعوة أجنبية المصدر فى غالب الأمر ، تصم الفصحى بالعى ، وتتهمها بالقصور والجمود ، وتنسب إليها ما أصاب

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

الشعوب العربية من تخلف ، وتوسوس للعرب باصطناع ألسنتهم المحلية لغات قومية لهم ، بها يكتبون ويؤلفون ويسجلون علومهم وآدابهم وسائر نشاطهم الفكرى، وترددت أصداء هذه الدعوة فى بعض مؤتمرات المستشرقين الدولية . وسواء أكانت هذه الدعوى ناشئة عن قصور أصحابها عن فهم مكانة الفصحى من حياة العرب والمسلمين وتقاليدهم وتراثهم، أم من مآرب أخرى تمت بسبب إلى سياسة إضعاف المقومات الأصيلة عند الشعوب النامية التى تنشد حقها فى الحياة الحرة الكريمة، فإنها قوبلت فى الأوساط العربية بالاستنكار والرفض، وانتدب لتفنيدها بعض الثقات من علماء العربية وكتابها .

وفى تلك المرحلة كان المصلحون العرب من جانبهم لا يألون ينبهون إلى ما خلفه عصر الركود فى الفصحى وأدبها من رواسب الضعف والسطحية والزخرفة المسرفة والبعد عن واقع الحياة ، ومن التعقيد فى تعليم قواعد العربية وأساليب إنشائها ، ويوجهون إلى التزام الوضوح واليسر فى استخدام ألفاظها ، والتقريب بينها وبين مدارك الناس ومألوف تعبيرهم ، والعمل على تنمية قاموسها ، وتحسين طرائق تعليمها وتعلمها ، وربطها بحياة العصر الحديث وحضارته . وقد بذلت — ولا تزال تبذل — الجهود لتحقيق كثير من هذه النواحى من التطوير والإصلاح فى حياة اللغة . ومن الإنصاف أن نقرر أن مجمع اللغة العربية والمجامع العلمية العربية وجهود الأفراد والهيئات ومعاهد العلم قد قطعت أشواطاً بعيدة فى إغناء القاموس العلمى والقاموس الحضارى للغة العرب، وفى توسيع طرق تنميتها ، وتيسير قواعدها وكتابتها وتصنيف المعاجم الحديثة لها . ومن الحق أن نذكر أن أصوات الدعاة إلى إحلال العامية محل الفصحى قد خفتت ، وأن تقارباً ملحوظاً بين لغة الثقافة ولغة الحياة اليومية قد حدث ، وذلك من تأثير ازدياد الجمهور القارىء وتطور وسائل الإعلام، وتنوع فرص اللقاء والاحتكاك والعمل القومى المشترك بين المثقفين والجماهير .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

ولكن قضية الازدواج اللغوى لا تزال تبدو وكأنها لما تلق كل العناية التى تستحقها ، وكأن الإيمان بضرورة حلها لما يصبح من القوة بحيث يأخذ مكانه فى التخطيط المنظم لسير الحياة العربية الحديثة .

إن التقارب الذى حدث فى الوطن العربى بين لغة الثقافة ولغة الحياة اليومية علامة على طريق الحل المنشود ، وجزء ضرورى من علاج مشكلة الازدواج، ولكنه لا يعالج جوهرها ، فهو تقارب فى قوالب التعبير وبعض أساليبه ، والمشكلة فى أساسها هى تجرد اللهجات المحلية من الخاصة الأساسية للفصحى وهى الإعراب ، وعدم جريانها فى كثير من أوضاعها النحوية وصيغها الصرفية على مقتضيات العربية المقننة .

وسيظل الازدواج قائماً بما يصاحبه من متاعب ومعوقات للفكر العربى ما بقى ذلك الانحراف عن سنن العربية الصحيحة وطرائقها الموروثة المقررة .

إن الوضع اللغوى المزدوج الذى يعيش فيه العالم العربى الحديث لم يعد يناسب التطور القومى الذى تعمل أمة العرب جاهدة على أن تحققه فى مختلف نواحى حياتها . ومن أبرز العقبات فى طريق ذلك التطور عدم استكمال اللغة العربية حقيقة وجودها ومركزها القومى ، فاللغة القومية لأمة ما هى اللغة التى يدرج عليها ولدان تلك الأمة منذ بدء حياتهم يثقفونها سماعاً ومشافهة أناشيد فى مهدهم وأقاصيص فى طفولتهم ، وتجرى بها ألسنتهم تقليداً ومحاكاة ، ويمارسونها وشائج اجتماعية بينهم وبين ذويهم ولداتهم ، حتى إذا وصلوا مرحلة التعليم المدرسى مارسوها قراءة وكتابة وأدباً وثقافة ، وتعرفوا عبقريتها فى قواعدها وأساليبها نظراً ودراسة بعد أن عرفوها ممارسة وحياة .

ويتصل بهذه الناحية من وضع الفصحى واستكمال حقيقتها القومية ناحية أخرى أصبح لها شأنها فى المجتمع العربى الحديث ، ذلك أن التطور السياسى والاجتماعى فى هذا المجتمع قد حقق قدراً من تذويب الفوارق بين الطبقات ، ومن اشتراك طوائف المواطنين فى ممارسة الشئون العامة والنقاش فيها ، وفى قيادة الهيئات وإدارة المؤسسات ، وأصبح من الطبيعى أن تضم دور النيابة والمجالس البلدية وغيرها أعضاء من جماهير الشعب من الفلاحين والعمال وأصحاب الحرف إلى جانب العلماء ورجال الثقافة من المواطنين ، ولم يعد من المستساغ فى نظام الوحدة الوطنية أن يختلف لسان التعبير من طائفة إلى أخرى فى خصائصه الجوهرية.

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

وإذا كان للغة الصحيحة الموحـدة شأنها فى كل قطر من أقطار العالم العربى الحديث فإن نمو الوعى بالقومية فى الوطن العربى الأكبر قد أصبح يفرض على العرب جميعاً عناية أكبر بلغتهم الفصيحة لغة تراثهم الروحى والعلمى والأدبى ، والركن المتين فى بناء قوميتهم . فهناك إجماع بين الباحثين فى القوميات على أن اللغة أحد العاملين الرئيسيين — أو العامل الأول بين بضعة عوامل رئيسية — فى بناء قومية أياً ما تكن .

ولا شك أن اللغة العربية الصحيحة قد كسبت — من هذا التطور العربى القومى — مزيداً من النفوذ فى المجال العالمى ، وأصبح لها مكانها لغة عمل فى بعض المنظمات الدولية . وهـذا وضع يستلزم أن يكون لتلك اللغـة سلطانها المطلق فى وطنها ، وأن ترسم الخطط الكفيلة بتخليصها من تلك الثنائية التى تعمل على إضعافها وتحد من انطلاقها .

على أن وراء نطاق القومية العربية مجالا أوسع اتجهت فيه الأنظار من جديد إلى العربيـة الفصحى ، وارتفعت الأصوات فيـه بضرورة الجد فى تعلمها والاتصال الوثيق بأدبها ، ذلك هو مجال المجتمع الإسـلامى فى أممه المنتشرة على سطح الأرض ، والتى يحرص كثير من مثقفيها على أن يدعموا إسلامهم بفهم كتابه العربى المبين والمشاركة فى تذوق إعجازه . ونحن نعلم بالمشاهدة وبالسماع أن أهل باكستان وأندونيسيا وجمهرة من أهل ماليزيا ونيجيريا وغـيرها من مواطن التجمعات الإسلامية الكبيرة يبدون حرصاً شديداً على أن يكون للغة العربية مكانها فى حياتهم الثقافية ، ولا يفتأون يطلبون العون فى تحقيق هذا من الوطن العربى مهد العروبة والإسـلام ، ومركز الإشعاع المستمر فى الحضارة الإسلامية .

هذا الموقف من جانب الأمم الإسلامية غير العربية اتجاه فى طريق العودة إلى قريب مما كان عليه الوضع فى العصور الإسلاميـة الزاهرة ، حين كانت مراكز العلم فى المجتمع الإسـلامى الواسع تزخر بأعلام العلماء ممن يمتلكون ناصية اللغة العربية وينافحون عنها ويضيفون إلى علومها ومعارفها كل يوم جديداً . وهو كذلك اتجاه فى طريق استمرار ما قام عليه الإسلام من ربط بين معجزته

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

السماوية واللسان العربى ، وإحياء ما حققه من إقامة حضارة عالمية ، موحدة الأداة الثقافية ، شارك فى بنائها المفكرون وأولو العلم فى دنيا الإسلام المترامية الأطراف . وإذا كانت العوامل السياسية والقومية والجغرافية قد جعلت كل أمة تحرص على أن تتخذ من لسانها الموروث لغتها القومية فإن من المحتمل أن يتجه التطور إلى اتخاذ اللغة العربية لغة ثانية فى كل أمة من الأمم غير العربية ذوات الغالبية الإسلامية إلى جانب لغتها الأولى القومية ، وبذلك يتحقق لتلك الأمم ما تحرص عليه ، من اعتزاز بخصائصها القومية من جهة ، ومن توثيق ارتباطها بسائر الأمم الإسلامية من طريق رابطة اللغة العربية لغة القرآن وحضارة الإسلام من جهة أخرى .

هذا الاتجاه الإسلامى الحديث يفتح نافذة هامة من نوافذ النظر إلى قضية الفصحى ومستقبلها ، ويفرض على أهلها أن يجدوا فى تقويتها وتنميتها ونشرها واستكمال حقيقة وجودها حتى تصبح فى أوطانها لغة حياة ، إلى جانب كونها لغة فكر وثقافة .

وإذا كنا فى صدر هذا الحديث قد وجهنا الاهتمام إلى إبراز الزاوية القومية والزاوية الإسلامية وما تفرضانه من نظر جاد إلى مركز الفصحى ومستقبلها فإن هناك زوايا أخرى لها شأنها فى الموضوع ، وفى مقدمتها زاوية التربية والتعليم فى كل قطر من أقطار العروبة . إن السياسة التعليمية العربية فى شئون اللغة قد عانت منذ أواخر القرن الماضى — ولا تزال تعانى — كثيراً من المتاعب وعدم الاستقرار بسبب الثنائية المعطلة التى جثمت فوق صدر العالم العربى ، فان وجود اللهجات المحلية وسيطرتها على كثير من ميادين الحياة اليومية قد جعل الفصحى أشبه بلغة أجنبية تتعلم من الكتب وتحفظ قواعدها حفظاً ، ويصرف المعلمون والتلاميذ فى ذلك أضعاف ما يبذله أمثالهم فى الأمم الراقية ذوات اللغة الموحدة ، وبالرغم من كل ذلك الجهد تبقى اللغة الصحيحة متأبية مستعصية على الجمهرة الغالبة من المثقفين ، لا تجرى بها أقلامهم فى يسر إذا كتبوا ، ولا تنطلق بها ألسنتهم من غير الخطأ أو الخوف فى الوقوع فيه إذا خطبوا أو حاضروا . ولو أن الفصحى واللهجة المحلية كانتا من فصيلتين لغويتين متباعدتين لهان الأمر ، ولكن اللهجات

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

المحلية فى البيئات العربية لهجات عربية فى معظم قوالبها ومفرداتها ، وإن كانت مجردة من الإعراب فى تراكيبها ، محرفة فى بعض صيغها وأشكالها ، وهى على ذلك اللغة الطبيعية المصاحبة للطفل منذ ولادته والمستمرة معه طول حياته ، والجهد الذى يبذله الناشىء فى المدرسة فى استظهار قواعده الفصحى والتمرس بأساليبها تضيع معظم ثمرته حين يعود الناشىء إلى معترك الحياة اليومية فى المنزل والملعب والسوق وغيرها فيعود إلى التحريف فى الألفاظ والتراكيب ، وإلى إهمال العلامات الإعرابية ، ويظل فى تحصيله للغة الصحيحة دائراً فى حلقة مفرغة ، وترتفع الشكوى ، وتكتب التقارير ، وتغير المناهج ، وتضطرب فلسفة التعليم بين الإكثار من القواعد والعناية بالنصوص ، وتلقى تبعة الفشل مرة على المعلمين ، وأخرى على الطرق والكتب ، وثالثة على الأجيال الصاعدة وعدم انصرافها إلى الجد والتحصيل ، وتبدو اللغة الفصحى من أثر كل ذلك لغة صعبة المراس ، مزدحمة القواعد ، معطلة للانطلاق الفكرى .

هذا الموقف غير العادل يثير حول اللغة القومية غباراً من التشكيك ، ويهز من ولاء النشء والمتعلمين لها ، ولكن آثاره السيئة لا تقف عند هذا ، فليس هناك من شك فى أن هذا الجهد المبدد بين العامية والفصحى يمثل طاقة بشرية معطلة . وقد حاول (حفنى ناصف) منذ ستين سنة مضت أن يجسم الخسارة الاقتصادية التى يتحملها الوطن من جراء هذه الطاقة المبددة مقدرة بالأرقام كما يلى :

« . . . وترى الطفل يتعلم العامية فى أقل من خمس سنين ولا يتعلم الفصحى فى أقل من عشر ، والسبب فى ذلك ظاهر ، وهو أنه فى أول أمره لا يسمع غير العامية ولا يتكلم بغيرها ، فهو أينما سار وحيثما ذهب مشتغل بها فترسخ فى ذهنه رسوخ الفرنسية فى أذهان أطفال الفرنسيس ، والإنكليزية فى أذهان أطفال الإنكليز ، وليس الحال كذلك فى إبان تعلمه لغة الكتابة ، ولو فرضنا صبياً نشأ فى بلد يتكلم أهله بالعربية الفصحى بالسليقة وبعد سن مخصوص يتعلمون العامية ويستعملونها فى الكتابة فقط لا نعكس معه الحال ، وتعلم الفصحى فى أقل من خمس سنين ، ولم يتعلم العامية فى أقل من عشر ، فليس فى طبيعة

اللسان العربى شىء من الصعوبة ؛ وإنما هى طريقة التلقين وبيئة التعليم » . . وعلى كل حال فالجمع بين العامية والفصحى يستنفد خمس عشرة سنة كان يغنى عنها خمس لو اقتصر المتعلم على إحداهما ، ويضيع على كل متعلم عشر سنين من عمره . فإذا تحققت الآمال وصار التعليم إجبارياً فكم تخسر الأمة كل سنة من أعمار أفرادها . وهى خسارة لا يحسن السكوت عليها فيا ضيعة الأعمار تمشى سبهللا !!... »

ولسنا نريد أن نقف لنحقق هذا التقدير (الناصفى) ولا أن نتتبع على أساسه حساب الخسائر الاقتصادية فى البلاد العربية كلها فى الوقت الحاضر ، ولكن لا مفر من الاعتراف بأنه يصور ظاهرة غير صحية فى الحياة اللغوية لأمة العرب .

وإلى جانب هذا التبديد فى الجهد البشرى تبرز أمامنا ظاهرة أخرى معوقة للتطوير التربوى فى العالم العربى ؛ ذلك أن الأمم الراقية — بفضل تحقق الوحدة اللغوية فيها — استطاعت أن تجرى التجارب على النمو اللغوى لأطفالها ، وأن تقنن المعايير التى يقاس بها هذا النمو ، وأن تفيد من هذا فيما تضع لمطالعات أطفالها ولتدريبهم اللغوى من مناهج وكتب . وواضح أن إجراء أمثال هذه التجارب على وجهها العلمى الصحيح ، والإفادة من نتائجها فى رسم المناهج وتقرير الكتب الملائمة لمدارك التلاميذ فى مراحل نموهم المختلفة أمر غير ميسور تحت أوضاعنا اللغوية الحاضرة .

ومن هنا كان من الطبيعى أن تكثر الشكاية من المفارقات بين قدرات الأطفال ومستويات الكتب والمناهج اللغوية فى عالمنا العربى ، وأن يندر فى ميدان التأليف عندنا المؤلفون والكتاب الخبيرون بعقليات التلاميذ ومتطلبات نموهم اللغوى ، القادرون على إشباع نهم الأطفال والشباب إلى قراءة القصص والرحلات وسير الأبطال وعجائب الكون وتجارب الحياة وظواهر الاجتماع وما إليها ، مما أثبتت البحوث النفسانية فى الأمم الأخرى ملاءمته لمراحل نمو الطفل من مهده إلى رشده .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

وبعد فإذا كانت هذه الثنائية قديمة قدم الفتوحات الإسلامية وانتشار العرب من شبه جزيرتهم إلى أرض الله الواسعة فما الذى جعل منها فى العصر الحديث قضية تتطلب الحل ؟ وإذا كانت هذه الثنائية معوقة لتطورنا الحديث فكيف استطاع العرب فى صدر الإسلام، بالرغم من هذه الثنائية، أن ينشئوا ملكاً واسعاً ويقيموا مجتمعاً زاهراً وينشروا فى العالم القديم حضارة وصلت قديم التاريخ بجديده ، وكانت من عوامل نهضة الغرب فى العصر الحديث .

إن سياسة الحكم العربى الإسلامى فى دنيا الإسلام الواسعة فى القرون الهجرية الأولى كانت تقوم أساساً على تهيئة الظروف المناسبة لانتشار كلمة الله ، وعلى المحافظة على اللغة العربية الفصحى لغة الدين والكتاب المبين ، وعلى ضمان حريات المواطنين من مختلف الأجناس فى معتقداتهم وأفكارهم وأساليب معاشهم . وقد سجل التاريخ أن الحكم العربى الإسلامى لم يفرض لغته على الناس فرضاً، وأن المواطنين فى ذلك الملك المترامى الأطراف كانوا يقبلون على تعلم اللغة العربية — لغة الدين والإدارة والثقافة الجديدة — بإرادتهم الحرة المختارة ، وأن كثيرين منهم امتلكوا ناصية الفصحى فكتبوا بها وألفوا وأسهموا فى بناء الحضارة العربية الإسلامية بنصيب كبير .

وكان من الطبيعى فى هذا المجتمع الواسع — بشعوبه وأجناسه — أن يسفر المزاج الاجتماعى فى الحياة اليومية عن لهجات تتصل كثيراً أو قليلا باللغة الفصيحة ولغاتها القديمة ، وأن يخشى العلماء المسلمون على الفصحى من عوارض اللحن التى أخذت تتسرب إليها ، فقاموا بما سجله لهم التاريخ بالإعجاب من تقنين الفصحى والتنبيه إلى مختلف الأخطاء اللغوية التى كانت تقع من العامة وأحياناً من الخاصة . وكان الاهتمام كله — كما أسلفنا — موجهاً إلى الفصحى لغة الدين والثقافة والفكر الرفيع ، وبذلك حفظت اللغة طوال العصور فى محيطها العلمى والأدبى ، وعاشت إلى جوارها فى البيئات ذات الصبغة العربية الغالبة ألسنة ولهجات عربية يستعملها الناس فى حياتهم اليومية ويؤلفون بها ألواناً من آدابهم الشعبية .

أما البيئات الإسلامية الأخرى فقد انحسرت عنها العربية وإن كانت قد احتظفت فى ألسنتها القومية بعناصر كثيرة أو قليلة من اللسان العربى .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

انتهى التطور التاريخى — إذن — منذ أكثر من ألف عام إلى تحديد تلك الرقعة الكبيرة التى تضم العالم العربى الآن وطناً للعروبة ومجالا أصيلا للفصحى وما يمت إليها بنسب من اللهجات . فلما جاء العصر الحديث بدأت هذه الثنائية اللغوية فى العالم العربى تكشف عن متناقضاتها ومساوئها ، وأخذ التطور السياسى والاجتماعى والثقافى فى القرن الحاضر يبرز الحاجة الملحة إلى توحيد لغة الحياة والثقافة فى أقطار العروبة ، وإلى ضرورة العمل القومى المتواصل لهذا التوحيد .

هذه الحاجة إلى التوحيد اللغوى تردد صداها لا فى الوطن العربى فحسب ولكن فى المجال الدولى أيضاً على لسان علمائنا ومصلحينا منذ أواخر القرن الماضى ، وقد حرص بعضهم على أن يرسم الطريق إلى التوحيد ، وعلى أن يقدر الزمن الكافى فى نظره لتحقيقه . ومن أوائل هؤلاء القاضى أمين فكرى أحد أعضاء الوفد الرسمى الذى أوفدته الحكومة المصرية إلى مؤتمر المستشرقين الدولى الثامن الذى انعقد فى استكهولم بالسويد والنرويج سنة ١٨٨٩ م . والذى حضره قرابة ستمائة عضو بينهم بعض الأسماء الغربية التى ذاعت شهرتها بعد فى عالم الاستشراق مثل جولد تسيهر ، وأوجست ملر ، والبارون دى كريمر ، ومكس ملر ، ودى غويه ، ومن الشرقيين عبد الله باشا فكرى رئيس وفد مصر ، والشيخ حمزة فتح الله ومحمود عمر عضوا الوفد ، والشيخ محمد بن محمود الشنقيطى أحد مبعوثى الحكومة العثمانية إذ ذاك .

(أ) ألقى أمين فكرى فى المؤتمر بحثاً بعنوان « نبذة فى إبطال رأى القائلين بتعويض اللغة العربية الصحيحة باللغة العامية فى الكتب والكتابة » ، فند فيه ما ذهب إليه بعض الناظرين فى اللغات الشرقية من رجال أوربا من « أن اللغة العربية المستعملة للتخاطب اليوم فى البلاد التى يتكلم فيها باللسان العربى قد صارت فى غاية البعد عن اللغة العربية الفصيحة الأصلية حتى صح أن تعد كل منهما لغة مستقلة عن الأخرى ..... وأن اللغة العامية وافية بحاجات أهلها فى التفاهم ولهم أن يستعملوها فى جميع أنواع المعانى عالية ودانية ، علمية وأدبية وصناعية وشرعية وسياسية .. ولهم أن يستعملوها كتابة وتأليفاً كما يستعملونها نطقاً .... وأن أمل التقدم ضعيف ما دامت العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية لغة القرآن كما فى الوقت الحاضر بدل أن تتعلم اللغة العربية

المستعملة لأن نسبة اللغة المصرية إلى لغة القرآن كنسبة الإيطالياني إلى اللاتيني، والإغريقي الحديث إلى الإغريقي القديم ... وأن الأمة العربية إذا بقيت علومها وآدابها مختزنة في العبارات الفصيحة كانت كأنها في لغة أخرى غير العربية ولا يصل آحاد الأمة إلى حاجته من ذلك إلا بعد أن يصرف الجزء الأهم من عمره في تحصيل اللغة . فلو أن العلوم نقلت إلى اللغة العامية وهي لغة الأب والأم وجميع الخلطاء يتعلمها الصبي كما يتعلم المشي والأكل والشرب لكان عنده من فضل الزمن ما يصرفه في تحصيل تلك العلوم وهو في أوائل الصبا .. »

ناقش أمين فكري هذه المزاعم نقاشاً فاحصاً ، وفند ما فيها من أخطاء وأقيسة باطلة ، وبين أن اللغة العامة في الأقطار العربية لم تبعد عن الفصيح بما تصير به لغة مستقلة ، فإن المواد هي المواد الأصلية بعينها إلا ما زاد عليها وهو قليل لا يلتفت إليه في تكوين لغة ، وهيئات التراكيب ترجع إلى الهيئات المعروفة في تركيب الكلام العربي ، غير أنه قد عرض على المفردات تحريف وتغيير بنقص أو زيادة لم يخف بها أصل اللفظ بحيث لو جرد اللفظ من الزيادة أو كمل من النقص أو صحح من التحريف لم يستبهم معناه على العامي ، وأشار إلى أن جميع العامة يحفظون شيئاً من القرآن الكريم يتلونه في صلواتهم ، والغالب منهم منهم يضم إلى ذلك شيئاً من الأدعية والأوراد وشيئاً من الحديث يستشهد به ، ثم هم في كل يوم جمعة يسمعون الخطبة باللغة الفصيحة ، وما من سامع منهم إلا تظهر عليه علامة الفهم بما يظهر على وجهه وفي حركات بدنه ، ثم هم يسمعون الوعاظ في المساجد ، والكثير منهم يحضرون في دروس العلم .

ووجه أمين فكري النظر إلى أن فساد النطق ليس من الملكات التي يلحق محوها بالمستحيلات كما يزعمون ، وأن الزمن الذي يلزم لتعلم اللغات العامية وفنونها يكفي لتعلم اللغة العربية الصحيحة ، وبذلك نربح وحدة اللغة واتصال التراث .

وانتهى من كل ذلك إلى اقتراح منهج للوصول إلى هذا التوحيد ولتسهيل العلوم على العامة تتلخص عناصره في :

إصلاح لغة العامة بالتقويم ، وكتابة الكتب في الآداب والفنون الابتدائية التي يجب تعميمها ونشرها بين أفراد الأمة كافة باللغة الفصيحة على شريطة

ألا يخرج الكاتب عن المفردات المستعملة فى لغة العامة فيجمع فى تلك الكتب بين موافقة الاستعمال والصحة ، ويمكن أن يطرح ما دخل فى اللغة العامية من الألفاظ الأجنبية ويستبدل به ما هو أفضل منه من اللغة العربية (والأفضل والأقرب للاعتماد أن يكون هذا بمعرفة جمعية علمية تتألف من مشاهير الأفاضل). ومتى استعمل اللفظ عند بعض القوم سار فى البقية وتمكن فى لغة الكافة كما نراه فى لفظ « اللجنة » و « المؤتمر » فإنهما قبل عشرين سنة (حينذاك) لم يكونا معروفين فى معناهما إلا عند بعض أهل العلم خاصة ، ثم صارا من بعد استعمال صاحب « الجوائب » لهما واتباع أصحاب الجرائد له على ذلك من الألفاظ التى لا يخفى مفهومها . هـذا فى المفردات ، أما هيئات التراكيب فتكون على أقرب ما يكون من تآليف العامة على شرط الصحة والفصاحة ، ثم بعد ذلك ينظر فى اللغة الفصيحة ويجلب منها ما يحتاج إليه فى التعبير عن المعانى التى لا لفظ لها على ألسنة العامة فى أنواع الفنون والآداب لمن يبغى الارتقاء فيها إلى أقصى غاياتها ، فتكون سعة لغة الشخص على قدر سعة علومه .

وأما البلغاء والفصحاء وأهل الطبقة العليا من الكلام فلهم فى خطاب بعضهم بعضاً ما لا يكون لغيرهم ، ولا يجب على أحدهم أن يجتنب من الألفاظ وصور التراكيب إلا ما ينكر عند علماء المعانى والبيان وأهل الذوق من حفظة اللسان . ويجمل بأهل الفصاحة فى مخاطبة العامة أن ينزلوا بالكلام إلى الطبقة التى يفهمونه بها .

ومن الأساسيات فى معالجة فساد النطق تعميم التعليم وإلزام المتعلم بتقويم لسانه عند النطق وتصحيح عبارته عند الكتابة من مبدأ التعليم إلى نهايته .

وأما ما يقال من صعوبة المسالك إلى تحصيل اللغة العربية الصحيحة وتعسر نيلها فى الأزمان الطويلة فذلك لا نراه إلا من اعوجاج طرق التعليم وفساد مذاهب بعض المعلمين فيه ، لا من بعد اللغة نفسها عن يد المتناول .

وفى سنة ١٩٠٨ أقامت مجموعة من علمائنا ومفكرينا الغير على اللغة العربية ندوة فى « نادى دار العلوم » بدعوة من رئيسه (حينذاك) حفنى ناصف لبحث

مشكلة التعريب واتخاذ أسماء للمخترعات الحديثة . واستمرت الندوة أسبوعين ألقيت فيهما بحوث جادة تناول الكثير منها قضية الفصحى والعامية .

(ب) فتحدث « طنطاوى جوهرى » عن اللغة المعروفة عند العامة المصريين قائلا إنها عربية صحيحة (يقصد فى معظم مفرداتها) والمحرف منها قليل وكذا الدخيل ، وأورد مائتين من ألفاظ العامة التى يهملها الكتاب زاعمين أنها مبتذلة مع أنها عربية فصيحة ، واستشهد على صحتها بكتب متن اللغة واستعمالها فى القرآن والحديث وأشعار العرب الموثوق بعربيتهم ، وانتهى فى بحثه إلى اقتراح العمل على التوحيد اللغوى برد الألفاظ العامية إلى أوضاعها الفصحية وإدخال الإعراب على سبيل التدريج ، وإصلاح المحرف ، واستبدال الدخيل بقدر الإمكان . وقد بنى اقتراحه هذا على أساس طائفة من الحقائق والمشاهدات : منها أن اللغة العامية فيها الأصول الضرورية لمعاشنا ، وأن الدخيل فيها لا يبلغ خمسة فى المائة من مجموع ألفاظها ، وكذا المحرف تحريفاً بيناً ، وأن أصول اللغة العامية وما قاربها تبلغ خمسة آلاف كلمة على أقل تقدير ، وربما وصلت ثمانية آلاف فى الفيروزابادى ، وأن اللحن والدخيل والتحريف جعلنا نظن العامية كلها فاسدة ، ونعد البليغ ما كان غريباً ، وأن ألفاظ أهل بلادنا قد وردت فى القرآن والحديث وكلام العرب فليست مبتذلة ، والحاجة ماسة إليها ، والأمة تتكلم بها فمن العبث نبذها ، وأن الفصيح والبليغ ماعرفه الناس الذين تخاطبهم إذا سبكته بنظم عجيب وأسلوب غير غريب ، وأن من أغرب فى الكلمات فلا هو فصيح ولا بليغ ، وإنما يحفظ ألفاظاً من اللغة ...

وكان مما اقترحه «طنطاوى جوهرى» وسيلة من وسائل التوحيد أن تستوعب الألفاظ المستعملة فى لسان التخاطب وتجمع فى قاموس ، بعد أن ترد إلى أوضاعها الفصيحة وإذ ذاك لا يقال عربية وعامية ، بل تكون كلها عربية صحيحة ، وينشر هذا القاموس بين الطبقات المتعلمة حتى تدخل ملكة اللغة بالتدريج فيكتفى به الناس فى أعمالهم ؛ ومن كان مختصاً بفن زاد لأجله من اللغة ماشاء من اصطلاحه ، وعالم البلاغة واللغة يجب أن يزيدا من اللغة العربية ما شاءا أن يزيدا ، ويراعى فى القاموس الذى ينشر ألا يذر نباتاً فى بلادنا ولا حيواناً

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

ولا غيرهما ولا صفة من صفاتها إلا وصفه ورسمه ، ويجب إدخال كلمات ذلك القاموس فى محاورات صغيرة لما يحيط بنا من الأمور الخارجية حتى يعرف أبناؤنا أحوال الحياة والتعبير عنها . . . » .

وقد بلغ من اقتناع « طنطاوى جوهـرى » بفكرته أن تنبأ أنه إذا شرع فى هذا العمل وسارت خطواته على ما رسم فلن تمضى عشر سنين حتى تصير لغة الكلام لغة التحرير ، وتزول تلك الوصمة ، ويخرج جيل عالم باللغة عالم بأصول الحياة .

ويبدو أن بعض علمائنا فى العقد الأول من القرن الحاضر كانوا مطمئنين إلى ما أحرزته قضية الفصحى فى العصر الحديث من تقدم مؤمنين بأن من الممكن تحقيق وحدة اللغة فى الفكر والحياة متى سلكت له السبل القديمة الموصلة .

(ج) ومن آية هذا ما أشار إليه « محمد الخضرى » فى بحثه الذى ألقاه فى الندوة المشار إليها ، فقد تحدث فى أول البحث عن النهضات التى مرت بها اللغة فى مصر فى العصر الحديث ، والتى كانت أولاها على يد « رفاعة » ورجال مدرسة الألسن ، وثانيتها على يد محمد عبده وتلاميذه ، وثالثتها هى التى بدأت فى مستهل القرن الحاضر ، والتى اتجهت إلى « أن تكون اللغة العربية لغة تعليم وتعلم ، وكتابة وتكلم ، ينبت فيها الصغير ، ولا يخل بوزنها الكبير ، والأعوان بيوم (فى عصره) أكثر منهم بالأمس ، فإن البذور التى غرست قد أثمرت فى كثير من الأنفس الطيبة ، فصارت من أنفسها تطلب الغايات وترقب الكمال ، والمعونة من مثل هؤلاء أعظم » . ولكن « الخضرى » نبه إلى أن هذا الطلب عزيز المنال وعر المسالك ، فلا بد للوصول إليه من عزيمة صادقة يقودها العقل الصحيح لتهيئة الطريق حتى لا تلتوى علينا المقاصد فنظن أنفسنا سائرين للأمام ونحن للخلف راجعون . وقد اقترح « الخضرى » فى شـأن المسميات الحديثة — وكانت المشكلة الرئيسية فى بحوث الندوة — تكوين مجمع يعهد إليه التقريب ، ويكون اختصاصه محصوراً فى دائرة أسماء الأجناس والأعلام ، ويكون له سجل تقيد فيه هذه الكلمات وإزاءها مسمياتها موضحة تمام التوضيح ، وأحسن ذلك ما كان بالرسم وتشكيل المسمى ، ويكتب أمامها التاريخ الذى وضعت فيه .

(د) وكان لحفنى ناصف فى ندوة دار العلوم بحث مطول استعرض فيه مراحل تنقية اللغة العربية فى القديم ، وما قام به نقله اللغة فى مرحلة الجمع والتقنين ، ووصف ما أصاب اللغة بعد عصر الازدهار من فساد ، وما نادى به بعض الناس من فتح ثغور اللغة العربية للدخيل من الألفاظ وأورد حججهم وحاول تفنيدها . وعرض لموضوع الفصحى والعامية فذكر ما يترتب على هذا الازدواج من الخسارة الاقتصادية ، محسوبة بالأرقام كما أسلفنا ، وأشار إلى الرأيين المتعارضين فى التغلب على هذه الصعوبة رأى المهندس ويلكوكس والقاضى ديلمور — الإنجليزيين — وهو يدعو إلى الاقتصار على العامية ، ورأى يعقوب أرتين (باشا) ويدعو إلى الاقتصار على الفصحى (وحفنى من أكبر أنصاره والمؤمنين به) .

وقد دعا أصحاب هذا المذهب الثانى إلى أن يكون المدخل إلى تعميم الفصحى تدريب التلاميذ فى المدارس على التكلم بها ، وأن يحبب إليهم التحاور بها كلما اجتمع لفيف منهم ، حتى ترسخ فيهم ملكتها ، وتملك ألسنتهم دربتها . ويكون أخذهم بالتدريب تدريجاً ، يطبقون على ما عرفوه ، ويكملون محاورتهم بالعامية فيما لم يعرفوه ، وكلما زادت درجتهم فى التعليم زادت قوتهم فى التطبيق ، إلى أن تهجر العامية وتحل الفصحى محلها . وقد تنبأ حفنى بأنه إذا اتبع هذا المنهج ، وضم إليه مطالعة الصحف والمجلات العربية ، وسماع الخطب العلمية فى الأندية العربية ، والتردد على معاهد العظات ومشاهد التمثيلات ومواقف المرافعات ، وتعليم الفتيات ، واحتذاء أساليب المنشئين ، وطبع كتب المؤلفين المبرزين فإن اللغة العامية تنقرض فى أقل من عشرين عاماً ، وتخلفها اللغة الصحيحة ويرجع اللسان العربى إلى عصر مجده وأيام سعده .

ومما هو جدير بالذكر أن « أرتين باشا » قد هم قبل تاريخ الندوة بعشرين سنة — كما يقول حفنى — بإلزام تلاميذ المدارس بالتكلم بالعربية الفصحى ما داموا تحت نظر معلميهم ، وأخذ يعد لهذا الأمر عدته ، واستشار حفنى وكان إذ ذاك مدرساً فى مدرسة الحقوق فأخبره أن ذلك حسن وميسور ، وطلب إليه (أرتين) وضع الفكرة موضع التجريب ففعل ، وكانت النتيجة بعد شهر

واحد مشجعة ؛ ولكن فريقاً من المعلمين احتجوا بأن التطبيق متعذر قبل حفظ اللغة وإتمام القواعد ، ويقول حفنى فى أسى بالغ : « ولولا التوكؤ على هذه المغالطة لكانت العامية الآن فى خبر كاد إن لم تكن فى خبر كان » .

(هـ) وفى ذلك العقد الأول من القرن الحاضر كان المصلح المجدد « لطفى السيد » ينادى على صفحات (الجريدة) برفع لغة العامة إلى الاستعمال الكتابى ، والنزول بالضرورى من لغة الكتابة إلى ميدان التخاطب والتعامل ، حتى نكتب الكتاب مفهوماً — كما يقول — ونتحدث الأحاديث عربية صحيحة. وكان لا يفتأ يحذر من أن نذر اللغة العامية أو لغة الشعب تموت بإبعاد عربيتها وفصيحها من عالم الكتابة والعلم ، وأن نذر الفصحى مخبوءة بين دفات الكتب ، لا ينزل منها إلى الاستعمال اليومى ما يحفظ بقاءها ويديم حياتها .

* * *

هذه النماذج التى اقتبسناها من المراحل الأولى من معالجة قضية الفصحى فى العصر الحديث تتلاقى كلها فى ضرورة الوصول باللغة الصحيحة إلى أن تصبح لغة الحياة والثقافة معاً ، وهى تؤيد ما قصدنا إلى إبرازه فى هذا البحث من أن خط التطور الذى سارت فيه الجهود فى القرن الحاضر امتداد طبيعى للمبادىء والاتجاهات التى تهدى بها علماء المراحل السابقة من نهضتنا الحديثة ، وأن معالم المستقبل الذى ننشده للغتنا القومية قد تحددت ، وأن أسس البناء قد وضعت وعلينا إعلاؤه وإتمامه .

إن الستين سنة التى سرناها منذ العقد الأول من القرن الحاضر قد شهدت تطوراً كبيراً فى جهودنا اللغوية ، وعلى الأخص فى الثلث الثانى من هذا القرن منذ أن بدأ مجمع اللغة العربية بالقاهرة عمله الجاد فى تنمية اللغة وتطويعها لمطالب العلم والحضارة ، ورسم الخطط للتقريب المنشود بين الفصحى واللهجات العربية المحلية ، وتصنيف المعاجم الحديثة على نهج ينظم الانتفاع بها وييسره لدوائر أوسع من المختصين وجماهير المثقفين ، وقد سارت بحوث كثير من المجمعيين فى موضوع الفصحى والعامية فى الاتجاه الرئيسى الذى نادى به علماؤنا فى أوائل

هذا القرن ، وأثمرت بحوثهم ثمرتها فيما اتخذه المجمع فى دوراته المتعاقبة من القرارات فى الموضوع .

وقد أيدت البحوث الحديثة ما أشارت إليه بحوث السابقين من أن أكثر الألفاظ العامية إما صحيحة قرشية ، وإما موافقة لبعض اللهجات العربية القديمة ، وإما محرفة تحريفاً يسهل معه ردها إلى الفصحى ، وأن الفارق بين العامية والفصحى لم يبلغ شيئاً يقرب من الفارق بين اللاتينية وما تفرع عنها من بعض اللغات الأوربية الحديثة . وأبرزت هذه البحوث أن العامية لم تستطع إلى الآن أن تتسامى إلى آفاق الفكر العليا ، وإن كان هناك خطر ماثل فى ازدياد صلاحيتها للتعبير الأدبى إذا تركت تسير فى مجراها دون محاولة جذبها إلى مدار اللغة الصحيحة ، وقد أقر مجمع اللغة العربية ما اقترحته لجنة العامية والفصحى من ضرورة دراسة اللغة العامية دراسة شاملة تتدارك ما فات الجهود السابقة التى بذلت فى هذه السبيل ، وتعين على تقريب الشقة بين العامية والفصحى . كما أقر المجمع الخطة التى وضعتها لجنة اللهجات لدراسة العلاقات بين اللهجات الحديثة فى الأقطار العربية كلها وبين اللغات العربية القديمة ، وهى فكرة لم تغب عن علمائنا السابقين فقد دعا إليها « حفنى ناصف » منذ أكثر من ثمانين سنة وعرض نموذجاً منها على المؤتمر الدولى السابع للمستشرقين الذى انعقد فى فينا سنة ١٨٨٦ .

إن النجاح الذى أحرزته الجهود المجمعية فى ثلث قرن من العمل الجاد المتواصل ولاسيما فى ميادين المصطلحات العلمية والحضارية ، والقرارات العلمية الميسرة للغة ، والمعجمات الحديثة التى تناسب روح العصر يحفزنا الآن — فى ضوء ماجد على حياتنا من العوامل القومية والثقافية والتربوية — أن ندعو إلى بدء مرحلة جديدة تتسم بسمتين رئيستين :

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

الأولى : مزيد من العمل على تعميق الإيمان عند جماهير المواطنين العرب ومنظماتهم وقياداتهم السياسية والثقافية والتعليمية بضرورة تحقيق الوحدة اللغوية فى الحياة والفكر فى الوطن العربى كله .

والثانية : التخطيط الجاد للعمل المرحلى لبلوغ هذا الهدف ، والتزام الموجهين لمختلف شئون الحياة العربية القيام بمسئولياتهم فى التخطيط والتنفيذ .

وبعبارة أخرى نريد أن نخرج بموضوع تعميم العربية الصحيحة ، من حيز الدعوات الفردية إلى مجال العقيدة الجماعية ، ومن زاوية القرارات والبحوث الجزئية إلى محيط التخطيط والتنفيذ الشاملين . نريد أن نحقق ماظللنا ندعو إليه ونعمل له فى تاريخنا الحديث نصف قرن أو يزيد ، وهو أن تصبح لغتنا العربية الصحيحة لغة قومية بالمعنى الكامل ، ينشأ عليها أبناؤنا منذ السنوات الأولى من حياتهم ، وهى المرحلة التى يتعلم الطفل فيها الحركة والمشى واللغة ومبادىء التفكير ، ويتقرر فيها أسلوب حياته المستقبلة ، ولذا اهتم العلماء المحدثون بدراستها وحددوا المثل التى يجب أن يصل إليها النمو الطبيعى فى جميع مظاهره (ومن أهمها القدرة على التعبير والاستعمال الصحيح لأجزاء الكلام) . وقد نبه العلماء إلى الاختلاف البين فى سرعة كسب اللغة بين الطفل والكبير ، وأشاروا إلى أن من أهم العوامل التى تجعل المزية فى هذا فى جانب الطفل مركزه فى بيئته الأسرية المحدودة ، وموقف أفراد تلك البيئة منه ، فالطفل يسمع لغته القومية من الصباح إلى المساء ، وهو يسمعها واضحة المخارج والمقاطع ، موحدة الاستعمال فى ألفاظها وأساليبها ونحوها واشتقاقها ، وهو ينهل من وردها العذب الدائم التجدد طول يومه ، وهو قبل أن يحسن استعمالها يسمعها من المحيطين به مكررة عباراتها ، مقرونة فى كثير من الأحيان بالعمل الموضح لها ، فالأم فى مناغاتها لوليدها وفى قيامها على شئونه المختلفة تعيد على سمعه كثيراً من الكلمات التى تدور حول معنى واحد ، وتقرن الكلام بالحركة والعمل فى معظم الحالات . ولبعض العلماء فى هذا ملحظ لا يخلو من طرافة وهو أنه لسر ما كان النساء أكثر كلاماً من الرجال ، فلو أن الإشراف على الأولاد فى مستهل حياتهم عهد إلى الآباء لأبطأت سرعة الأطفال فى تعلمهم الكلام وإجادتهم طرق التعبير . وللشاعرة الإنجليزية اليزابيث براوننج (١٨٠٩ — ١٨٦١) فى هذا المعنى مقطوعة عذبة الروح تصف فيها « كيف ألهم الله الأمهات أن ينشئن أبناءهن فى طريقة مرحة محببة ، وكيف أودع فيهن القدرة على نظم عقود من الكلمات الجميلة لامعنى لها ، وعلى أن ينفثن مع قبلاتهن معانى كاملة فى أصوات عابثة ، فهن

يحطن الوليد بالحب ، ويعلمنه فى أثناء اللعب ، ويحفظن عليه مرحه وخفته طويلا ، والآباء يحبون أبناءهم كذلك ، ولكن حبهم مثقل بأدمغة رزينة ، وإرادات شاعرة بتبعاتها ، فحبهم ليس حكيما كحب الأمهات لأنه أقل منه خفة وحمقاً ! ! » .

يضاف إلى ماسبق أن الطفل يتمتع بدروس خاصة فى لغته طول وقته ، وهو يسمع اللغة فى كل أحوالها ومواطنها الممكنة فى شكل طبيعى غير متكلف تتوارد فيه اللغة وظروفها ، وتتطابق الكلمات والإشارات وتعبيرات الوجه بما يساعد الطفل على صحة الفهم وضبطه . ولأغلب مايسمع الطفل فى صغره موقع خاص عنده ذلك لأنه يعنيه ويهمه ويرتبط برغائبه وراحة جسمه ، وما يبدأ هو ينطق ببعض الكلمات حتى يحس قدرتها السحرية على تحقيق مطالبه فيشعر إذ ذاك بقيمتها العملية ، ويزيد هذا فى حسن إقباله عليها وفى تذليل صعوبة استعمالها حتى النوع الذى يسمعه ولا تكون له علاقة بحاجاته الحاضرة لا يذهب سدى ، ولكن يدخر فى ذاكرته ليوم يحتاج إليه ، ومعظم ما يسمعه الطفل ولو من لغة غير لغته الأصلية يخلف أثراً عنده ، ولهذا شواهد وأمثلة سجلتها الدراسات الحديثة فى علم النفس .

الوضع الطبيعى الذى نريد أن نصل إليه — إذن — أن ينشأ الطفل العربى فى أحضان اللغة العربية وأن يحيا فى صحبتها . ولكن كيف ، والكبار فى المنزل وبيئة الأسرة والبيئات العامة فى المجتمع لا يتكلمونها وإنما يتكلمون العامية التى نشأوا عليها وهم صغار ! ومن أين نبدأ !

إن هذه الحلقة المفرغة لابد أن تكسر ، ولابد لنا فى هذه المرحلة أن تصنع التحول صنعاً بعد أن نؤمن بضرورته ، وخطتنا فى هذا يجب أن تسير فى شعب ثلاثة : شعبة تتجه إلى جموع الشباب وتعليمهم فى مراحل التعليم ؛ وشعبة تتجه إلى جماهير المواطنين الكبار وقادة هيئاتهم ومنظماتهم ؛ وثالثة تتجه إلى بيئة المنزل والأسرة . ومن وراء كل ذلك قاعدة علمية تخطط وتقترح الوسائل وتحدد المراحل وتتابع التنفيذ .

ولا بد لنا ونحن نحاول هذه الانتقالة الهامة فى تاريخنا الثقافى أن ندرك

العقبات على حقيقتها ، ونضعها موضع الدرس والبحث ، ونضع اقتراحاتنا وتوصياتنا موضع النقد والتمحيص . فلقد ذهب بعض المشتغلين بالدراسات العربية إلى تبرير وجود لسان عربى عامى يقوم بمطالب الحياة والاجتماع اليومى إلى جانب وجود اللغة العربية الصحيحة لغة أدب وثقافة ، قياساً على أن للأمم بجانب لغة الثقافة والفكر والأدب الرفيع فيها لساناً للتخاطب يمتاز بالمرونة والسهولة والتصورات القريبة . وهو قياس مع الفارق — كما يقال — فإن لسان التخاطب المستعمل فى أمة راقية معاصرة — كالأمة الإنجليزية مثلا — لا يختلف عن لغة الثقافة والفكر إلا فى بعض لوازم بيئية وألوان من التبسيط الشكلى المحدود لا تجعل منه نظاماً لغوياً ثانياً ، ولا تحول بسببها أداة الثقافة والفكر إلى لغة يتعلمها أهلها تعلما من القواعد والكتب ، وقد مرت الأمة الإنجليزية بمراحل كان للهجات المحلية فيها شأنها ، ولكن ذلك انقضى الآن فلم تبق من اللهجات إلا رسوم وآثار يتفكه بها الشعب الإنجليزى فى بعض ألوان سمره ، أو يستعملها بعض الكتاب فى خلال عمل من أعمالهم القصصية أو المسرحية إبرازاً للون محلى أو تصويراً لشخصية شعبية ، وقد بلغ من دروس معالم العاميات الانجليزية أن عمد الإنجليز إلى إنشاء جمعية للمحافظة على بقايا العامية من طريق تسجيلها فى اسطوانات وأشرطة خدمة للعلم وللتاريخ. ويوم يصل وضعنا اللغوى إلى مثل ما وصل إليه الإنجليز من التوحيد فى لغتهم لن يكون هناك تحرج من أن يدخل ممثل كوميدى أو كاتب قصصى شيئاً من الحوار الدارج فى فنه ، قصداً للترفيه أو استكمالا للتصوير ، ولن يكون هناك مانع من الترخص فى استعمال بعض العبارات المحلية الدارجة بباعث الخوف على سلامة اللغة القومية الفصحى.

ولقد يقال — وقيل فعلا — إن لغة الحياة لا يمكن أن تفرض فرضاً، ومهمة المجامع اللغوية التسجيل والإصلاح لا التشريع والإلزام، وسنن الاجتماع البشرى تقضى أن يترك الناس أحراراً فيما يستعملون من وسائل التعبير فى معيشتهم اليومية .

وقد يقال إن التطور البطىء فى مجال اللغة خير من التطوير المصنوع ، وإن انتشار التعليم وازدياد الوعى الثقافى ، ووصول جميع المواطنين أو غالبيتهم إلى المستوى الذى يستطيعون فيه القراءة والكتابة ، كفيل أن يقرب المسافة بين

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

الفصحى واللهجات، وأن ينتهى آخر الأمر — ولو فى المدى البعيد — إلى التوحيد المنشود، وقد عشنا على الأزدواج اللغوى مئات من السنين ، صنعنا فيها حضارة عربية إسلامية زاهرة ، أثرت فى السير الحضارى للبشرية فى عصورها الحديثة، فلا ضير أن ننتظر نصف قرن من الزمان نمحو فيه الأمية محواً تاماً ماضين فى خلال ذلك فى حركة تطهير الفصحى والربط بينها وبين الحياة .

ولقد يرى فريق من الناس — ولمنطقهم فى هذا مبرراته — أن أمام الوطن العربى الآن من المشكلات القومية والاقتصادية والدولية ما هو أهم من الانشغال بالتوحيد اللغوى ، واللغة تستطيع أن تنتظر ، ولكن كرامة الأوطان وحرياتها وتطهير أرضها من عدوان المعتدين شئون لا يجوز فيها الانتظار .

هذه وجهات من النظر لا يخلو بعضها من وجاهة ، ومن الخير مواجهتها وإفساح المجال لنقاشها ، وقد أدرت هذا البحث حول مناقشة بعضها . فأما ما كان منها قائماً على فلسفة الإبقاء على الازدواج اللغوى فهناك من الأسباب ما يدعو — فى نظرى — إلى عدم الأخذ به . وأما ما كان معتمداً على عمل التطور على المدى البعيد فقد يرد عليه بأن ميزان الحياة الحديثة قد مال ناحية التطوير ودفع عجلة التطور فى سرعة وقوة ، وأن الأمة التى ترى النقص واضحاً فى كيانها القومى ولا تنهض إلى سده اليوم قبل الغد لا تستطيع أن تلحق القافلة . وأما الاحتجاج بالانشغال بالمعركة المصيرية للوطن العربى عما عداها من المشكلات فيرد عليه أن اللغة القومية ركن هام فى بناء الكيان العربى الموحد ، وأن انتصار الأمة العربية فى كفاحها ضد الاستعمار والصهيونية يتوقف أول ما يتوقف على وحدتها وتماسكها ووقوفها صفاً كالبنيان المرصوص ، وتمسكها بخصائصها ومقومات عروبتها من لسان وتراث ومثل روحية، وقد عمل أعداؤها — ولا يزالون يعملون — جاهدين على أن يفقدوها ثقتها بنفسها، وعلى أن يهزوا ولاءها لأركان شخصيتها ويفصموا تلك الرابطة المتينة بين لغتها وتراثها الروحى ، حتى يسهل عليهم هدم كل ركن على حدة .

وبعد فقد اتجهنا فى هذا البحث إلى إبراز الخط الذى سار ويسير فيه تطور العربية الفصحى فى العصر الحديث ، وتحديد معالم المرحلة التى قطعناها فى هذا

المسير نحو المستقبل المنشود ، وختمناه بالإشارة إلى نماذج مما اقترح من وسائل التوحيد اللغوى منذ أواخر القرن الماضى ، ودعونا إلى تحقيق انتقالة جديدة على طريق العمل اللغوى تتسم — كما قلنا — بسمتين : أولاهما تعميق الإيمان بمستقبل الفصحى وضرورة تعميمها حتى تصبح قريباً لغة حياة إلى جانب كونها لغة فكر وثقافة ، والثانية التخطيط والتنفيذ المرحلى لبلوغ هذا الهدف .

* * *

راجع ما يلى :

١ — يوهان فك : العربية — دراسة فى اللغة واللهجات والأساليب » (ترجمة عبد الحليم النجار ، القاهرة ١٩٥١) .

٢ — كتب اللحن وتقويم اللسان (مثل : أ — « تقويم اللسان » لابن الجوزى ، ب — « تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » لابن مكى الصقلى . جـ — « لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية » لعبد العزيز مطر ...) .

٣ — حفنى ناصف : « مميزات لغات العرب وتخريج اللغات العامية عليها وفائدة علم التاريخ من ذلك » (بحث قدمه لمؤتمر المستشرقين الدولى السابع — فينا — ١٨٨٦ ونشرته جامعة القاهرة — ط ٢ — ١٩٦٧) .

٤ — أمين فكرى : « إبطال رأى القائلين بتعويض اللغة العربية الصحيحة باللغة العامية » (بحث قدمه لمؤتمر المستشرقين الدولى الثامن — ستوكهلم — ١٨٨٩ ونشره فى كتابه عن الرحلة إلى المؤتمر : إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا — مطبعة المقتطف ١٨٩٢) .

٥ — بحوث ندوة نادى دار العلوم بالقاهرة ١٩٠٨ ، ومنها : أ — طنطاوى جوهرى : « اللغة المصرية العامية » (المقتطف مجلد ٣٣ ج ٤ — ١٩٠٨) ب — حفنى ناصف : الأسماء العربية لمحدثات الحضارة والمدنية » (المقتطف مجلد ٣٣ ج ٥ — وطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٦) .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES

٦ — بحوث مجمعية منشورة فى مجلة مجمع اللغة العربية منها :

(أ) عيسى اسكندر المعلوف : « اللغة العربية العامية » (مجلة عدد ١ و ٢).

(ب) محمد فريد أبو حديد : « موقف اللغة العربيـــة العامية من اللغة الفصحى » . (عدد ٧) .

(ج) أحمد حسن الزيات : « حق الوضع اللغوى » (عدد ٨) و « المجمع واللغة العامة » (عدد ٩) .

(د) محمد رضا الشبيبى : « التقريب بين الفصحى ولهجاتها » (عدد ٩) .

(هـ) قرار لجنة الأصول بالمجمع فى شأن التقريب بين الفصحى ولهجاتها (عدد ٩) .

(و) عبد القادر المغربى : « دراسة فى اللهجة المصرية » (عدد ٣) .

(ز) محمود تيمور : « لغة المجتمع » (عدد ٩) .

(ح) عزيز أباظة : « الفصحى والعامية من زاوية جـديدة » (أعمـال مؤتمر المجمع ١٩٦٦) .

٧ — محمد خلف الله أحمد :

(أ) « المراحل الأولى من تطور الفصحى وتقنينها » (بحث بالإنجليزية — مجلة كلية الآداب بالإسكندرية مجلد ٩ — ١٩٥٥) .

(ب) « العربية » (بحث بالإنجليزية — دائرة المعارف الإسلامية . الطبعة الجديدة . ليدن . ص ٥٦٧ — ٥٦٩) .

(ج) « حفنى ناصف كاتباً وباحثاً » : (مطبوعات معهـد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ١٩٦١) .

(د) « معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها ج ١ » (مطبوعات الجمعية المصرية التاريخية ١٩٦١) .

INSTITUTE OF ARAB RESEARCH & STUDIES
عضو اتحاد الجامعات العربية